**المحاضرة الخامسة: بدايات النقد في العصر الحديث**

استيقظ العالم العربي في عصر النهضة على أصداء واقع جديد يعيشه الغرب بعد خروجه من مرحلة القرون الوسطى، و بعد سعيه لاستعادة أمجاده الضائعة التي عايشها في عصوره القبلية، و الالتفات إلى هذه المرحلة هو أهم إنجاز تدين إليه البشرية بالتقدير و الامتنان إلى يومنا هذا، و القول في المحور السابق حول فترة إعادة البعث و الإحياء هو إشارة لبداية جديدة و إن كان محور الاهتمام فيها عودة إلى الماضي البعيد، فالعودة للتراث بالفرز و التنقيب فكرة تحمل في ذاتها إرادة التغيير و بداية التفكير و البحث عن وضع جديد، هذا الوضع ينطلق من ركيزة الماضي و أمجاده و هي نفسها الفكرة التي آمن بها العالم الغربي في بداية نهضته، و كان للأخذ عنه سبيلان، الترجمة و الهجرة.

فكانت الترجمة وسيلة حوار و تحاور بين الحضارات كلها، فتحت على إثرها أبواب الثقافات تأخذ كل منها عن الأخرى، فكان اتجاه البعث و الإحياء في العالم العربي تأثرا بمبادئ الكلاسيكية و الاتباعية في العالم الغربي، وإرادة التقليد نابعة أصلا من الانبهار الذي حدث للعالم العربي في ظل الصدمة التي تلقاها بعد سقوط الدولة العثمانية و اختلال موازين القوى، و صارت الخلافة العثمانية وهما تردى بالعالم العربي إلى أسفل دركات التحقيق و الإنجاز بعد الانفصال عن كل ما تعلق بالخلافة الأندلسية و سيطرة السلالة التركية وراء غطاء الدولة العلية التي تريد رفع راية الإسلام و ما أحاط بها من هالات التقديس.

والبدء بالحديث عن التجديد هو عودة للتقليد، و ما قيل في كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي صورة عن إرادة المسايرة خرجت من رحم التراث القديم، فيحمل الانتقاء و التصويب في حد ذاته عن التراث إرادة العودة عن بعض النماذج التراثية- و لكن ليس مطلقا - لأن المدرسة في حد ذاتها لم تهدف إلى التجديد و لكن هدفها البعث و الإحياء، انطلاقا من التراث، و نفس النظرة إذا تم قلبها أفقيا تصبح وعيا بضرورة التجديد بالتركيز على النص الإبداعي في ذاته.

ويصبح أصل النظر إلى التراث العربي نظرة إلى مصدرها، و الأمر يتعلق هذه المرة بالعالم الغربي و الأخذ عن الأصل في الأفكار النهضوية بما هي أسس ثابتة أقيم على أساسها صرح العلم التجريبي و الفلسفة العقلية، و منه إلى التبويب للحصول على علم جديد مستقل، فيكون الاحتذاء بالنماذج التقليدية إصرار على عدم مسايرة العصر بما هو مرحلة انفصالية جديدة يكون الوعي فيها هدفا و ليس ضرورة العودة إلى سابق العهد بالمركزية التي يمليها التمركز حول الذات و صد الآخر و رفضه.

ولهذا الأخذ بمبادئ المنطق الصوري- أحد أهم المقولات التي تم إحياؤها في العصر الحديث- يملي على الإنسان الحديث تحري كل الموضوعية و البعد عن الذاتية، في الفصل بين الخطأ و الصواب، فكانت النماذج المقلدة في العصر الحديث دليلا كافيا على الانفصام و التشرذم و المفارقة التي تتشكل بين هذه النصوص و العصر الذي هم فيه، و هي أولى الخطوات التي قاد التركيز عليها إلى الوعي بضرورة الخروج من دائرة التقليد الأعمى الذي صارت نماذجه فارغة و قوالبه جامدة، ففي الوقت الذي يسعى الشعراء فيه إلى المحافظة على اللغة العربية في نماذجها التقليدية، هو حكم في الوقت نفسه على جمود هذه اللغة و انفصالها عن العصر الحديث، و انتمائها إلى المعجم العربي القديم غير قابلة للتجديد و الاستمرار، و بعبارة أخرى قتلها في صورها التقليدية، و لا يكون حل الخروج من هذه الصور إلا بمحاولة التجديد الذي يكون أساسه مسايرة العصر أو الالتفات للحضارة الغربية من أجل البحث عن الجديد.

فكانت إرهاصات التجديد لهذا النقد، انطلاقا من عيوب الصورة التي انتهى إليها اتجاه الإحياء و البعث في العالم العربي، فخرجت إرادة التغيير و التجديد من رحم إرادة البعث و الإحياء، و ظهر من النقاد و الشعراء في العصر الحديث من يؤمن بهذه الفكرة و ينادي بها، و صار زعماء حركة الإحياء زعماء حركة التجديد، نذكر على سبيل المثال أحمد شوقي الذي بدأ إحيائيا و انتهى مجددا و مغيرا، و نذكر أيضا الشاعر و الناقد الجزائري رمضان حمود...الذي انطلق من واقع الأدب الجزائري و الواقع في ظل الظروف الاستعمارية و رأى من التخلف المحافظة على النماذج القديمة و ضرورة الالتفات للعالم الغربي و الأخذ عن هذا القوي الذي صار واقعا هو الاعتراف بريادته و تفوقه .

مع العلم أن رمضان حمود كان ينتمي للتيار الإصلاحي في الجزائر بداية الأمر، إذ كان الاحتذاء عنده بالنماذج القديمة هو منتهى أهدافه و غاياته، و انطلاقا مما سبق كان التجديد في الشعر و النقد مرحلة تالية في تصور الإنسان العربي الحديث، بعدما أثبتت النماذج الشعرية المقلدة عدم جدواها في عصر صار يفرض جديدا لا يمكن العيش فيه بعقلية محافظة مختلفة عن أحداثها، فكانت كل الظروف مهيأة للتغيير و التجديد و الاختلاف عن التقاليد السائدة.